نصّ تمهيدي

الأصَالــةُ وَالحَداثَــةُ

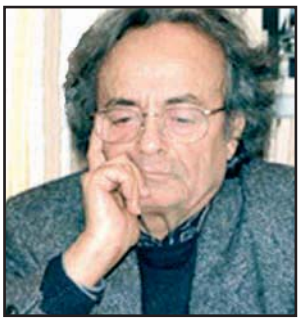

بــدأ تراجع المجتمــع العربيّ عن السّــير في الطّرق الّتي فتحتهــا الحداثة العربيّة مع ســقوط بغداد ســنة 1258 م، وتــمّ الانقطــاع عنها في الحــروب الصّليبيّة، وبلــغ أوجه مع السّيطرة العثمانيّة. وبين أوائل القرن التّاسع عشر وأواسط الأربعينيّات من القرن العشــرين، وهي مرحلة الاســتعمار الغربيّ، ومرحلة الاتّصال بثقافته وحداثته، ومرحلة ما سمّي بـ«عصر النّهضة»، استعيدت مســألة الحداثة، واستؤنفت مناقشة الإشكالات والقضايا الّتي تثيرها. وكانت الآراء منقسمة في اتّجاهيْن عامّيْن: أصوليّ يرى في الدّين وعلوم اللّغة العربيّة قاعدته الأولى، وتجاوزيّ يرى، على العكس، في العلمانيّة الأوروبيّة قاعدته الأولى.

غير أنّ ثقافة الأصول هي الّتي هيمنت، وبخاصّة على مســتوى المؤسّسة، وساعدت على هيمنتها أوضاع اقتصاديّة واجتماعيّة وسياسيّة، داخليّة وخارجيّة...

بتعبــير آخر، يتضمّن القول بالحداثة القــول بما لم يكن معروفا في الماضي. الحديث من هذه النّاحية، يكشــف عن نقص ما، أو عن فراغ ما في القديم. والحداثة، إذن، خروج علــى الأصول. ومن هنا نــدرك دلالة الرّبط، في ذلك التّنظير، بين الإحداث الّذي يخالف القديم، وتهم البدعة أو الهَرْطَقَةِ. ندرك أيضا الأسباب الّتي جعلت ألفاظا مثل «الحديث» و«المُحْدَث» و«الإحدَاث»، والّتي هي مصطلحات دينيّة، تنتقل إلى مجال الشّعر.

الهَرْطَقَةُ: البِدْعَةُ وَالشّذُوذُ.

وتتجسّد هذه الثّقافة في ممارسة معرفيّة، متواصلة، ترى أنّ الحقيقة كامنة في النّصّ، وليس في التّجربة والواقع، فهي معطاة نهائيّا، ولا حقيقة غيرها. ودور الفكر هو أن يشرح ويعلّم، انطلاقا من الإيمان بهذه الحقيقة، لا أن يبحث، ويتســاءل من أجل الوصول إلى حقائق جديدة، مغايرة.

من هنا، كان طبيعيّا أن ترفض هذه الثّقافة الحداثة الّتي تتناقض نظريّا، مع أصولها، خصوصــا في كلّ ما يمكــن أن يؤدّي إلى التّشــكيك في رؤيتها الدّينيّــة، وجهازها المعرفيّ الدّينيّ.

هكذا يجد العرب أنفسهم، بسبب من هيمنة هذه المعرفة «الأصوليّة» على مستوى المؤسّسة والسّلطة، وبالرّغم من جميع التّحوّلات الّتي حدثت منذ أربعة عشر قرنا، كأنّهم يتحرّكون على مسرح يعيد فيه التّاريخ نفسه، لكن لغاية واحدة: التّحيين المتواصل للماضي...

هكذا أسّس «عصر النّهضة» لتبعيّة مزدوجة للماضي، حيث يعوّض العربيّ بالاستعادة والتّذكّر عن الممارسة الخلاّقة؛ وللغرب الأوروبيّ-الأمريكيّ، حيث يعوّض بالاقتباس، فكريّا وتقنيّا، عن غياب إبداعيّته. والواقع أنّ الثّقافة العربيّة السّائدة تجيء في معظم جوانبها النّظريّة من الماضي، الدّينيّ على الأخصّ، وتجيء في معظم جوانبها التّقنيّة من الغرب الأوروبيّ-الأمريكيّ. 30

وفي الحالَيْن امّحاء للشّخصيّة. في الحالين، عقل مستعار وحياة مستعارة. فهذه الثّقافة لا تعلِم استهلاك الأشياء وحدها، وإنّما تعلّم كذلك استهلاك الإنسان.

أدونيس ، الشّعريّة العربيّة، دار الآداب، بيروت، الطّبعة الثّالثة 2000، ص ص 82 - 86

أدونيس: هو علي أحمد سعيد المعروف بأدونيس، وهو شاعر وناقد وُلد بسورية سنة 1930، حصل على اللّيسانس في الفلسفة من جامعة دمشق، ثمّ ارتحل إلى بيروت سنة 1956، واستعاد جنسيّته اللّبنانيّة. شارك في تأسيس مجلّة شعر 1975. حصل على دكتوراه الدّولة في الآداب سنة 1973، ثمّ درّس بالجامعة حتّى غادر بيروت أثناء الحرب الأهليّة سنة 1985 وقصد باريس. من مؤلّفاته الشّعريّة: أغاني مهيار الدّمشقيّ، مفرد بصِيغة الجمع، كتاب الحصار، تنبّأ أيّها الأعمى، تاريخ يتمزّق في جسد امرأة. وفي الدّراسات الأدبيّة: الثّابت والمتحوّل»أربعة أجزاء»، مقدّمة للشّعر العربيّ، الشّعريّة العربيّة.

محاور الاهتمام:

- صراع الحداثة والأصالة يعود إلى أنّ:
  - الحداثة كشف عن نقائص الماضي، وخروج عن الأصول.
  - الأصالة ترى الحقيقة كامنة في النّصّ لا في التّجربة.
  - الأصالة تحصر دور الفكر في شرح القديم وفهمه لا في البحث عن الجديد.
- نتيجة الصّراع بين الحداثة والأصالة :
  - العرب الأصوليّون يحيّنون الماضي باستمرار.
  - العرب عموما يعيشون تبعيّة مزدوجة يعوّض فيها التّذكّر الممارسة الخلاّقة، والاقتباس الإبداع.